ربّ يسر وأعن

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على النبي الأميّ وعلى آله وصحبه أجمعين..

إن أي عقيدة أو فكرة ما كان لها أن تقوم على الأرض أو تثبت نفسها في هذه الحياة إلا برجال يحمونا ويذودون عنها ويموتون في سبيلها، والفكرة مهما بدت عظيمة جليلة فإنها لن تؤتي أكلها إلا من خلال تحققها على أرض الواقع على أيدي المؤمنين بها، ومن المعايير التي يستخدمها أهل النظر والبصيرة في الإبانة عن صدق أية دعوة وفكرة معيار النظر إلى رجالها ومقدار التزامهم بها واقعاً وعملاً، وهذا الذي فعله هرقل عندما أراد أن يعرف صدق دعوة النبي ﷺ، فإنه سأل عن أتباعه يزيدون أن ينقصون؟ وهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟، فلما رأى التزام رجال الإيمان بإيمانهم علم صدق هذه الدعوة، وهذا فرق مهم بين الدعاة إلى الدين وبين من يعرضون أنفسهم بحاثّة وأهل تفكير وقلم فقط، فإن الداعي إلى دين لا بد أن يكون ملتزماً بما يدعو إليه، لأنه يحمل هم هداية الخلق، فهو متجنب بكل جهده أن يحصل منه ما يعوق إقبال الناس على دعوته، وأما غيره من الذين يريدون تقديم أنفسهم كأصحاب قلم فيه بعض الفنون، أو أصحاب فكر فيه بعض ما هو جميل، فإنه لا يحمل هذا الهمّ، ولذلك ترى عامّة من حملوا هذا الدين فكرة فقط ليس لديهم اهتمام بأعمال هذا الدين وسلوكه وعباداته، بل لو صدر من أحدهم ما يقزز النفس من مظاهر عملية ولفظية كالسلوك الجاهلي القبيح فإنه يسارع أصحاب هذا النظر إلى تبرير أعماله بوجوب التفريق بين الفكرة والعمل، وهذا إن جاز مع أصحاب الشركات النفطية ومصانع الأدوية ومدرسي الجامعات وكتبة الأبحاث فإنه لا يجوز أبداً أن يضطرد هذا الفصام إلى دين الله تعالى وحملته وأهله، فاختلاط العلم بالعمل في شخص الداعي إلى الله تعالى هو مقصد الرسل وهدف الأنبياء، ولذلك من الامتحانات الصعبة التي يواجهها أهل الإسلام في هذا العصر هو بيان صورة المسلم الصحيحة في هذا الوجود، ولا نقصد أبداً الصورة التي يرضى عنها الناس بحساباتهم ومقاييسهم الجاهلية، ولكن أن يرى في حياة الداعي إلى الله تعالى صدق ما يدعو إليه، فالتجديد الذي يحصل على مدار التاريخ لهذا الدين لا يحصل فقط على المستوى العلمي فقط بتحريره من كل صور البدع والخرافات ولكن التجديد الذي حصل ويحصل دائماً إنما يقع على المستوى العلمي والعملي كذلك، أي بتقديم النموذج العملي الصحيح لهذا الدين.

ونحن إذا قلنا أن جماعات التوحيد والجهاد، أتباع السلف الصالح هم أولى الناس دخولاً في هذه الطائفة المنصورة في هذا العصر فإن هذا مع شرف أهله ورفعة أمرهم لكن فيه كذلك عظمة التكليف الملقى على عاتقهم بأن يكونوا أوفياء لهذا الشعار، أوفياء لهذا الدين، وأن يحاولوا جاهدين أن يصدقوا مع الله ومع دينه ومع ارتباطهم بالغيب الذي يدعون إليه، وإن حصل العكس فإن جمال الشعار لا يغني

عن الحقيقة شيئاً، وسيلفظهم التاريخ وسيخرجون من أعين الناس كصور قزمية قبيحة مهما حاولوا من جهود لستر هذه القبائح بانتسابهم إلى الجهاد والمجاهدين.

فالفكرة لا تغير التاريخ ولا تصنع واقعاً مهما بدت صحيحة وصائبة، ومهما كانت جميلة وحسنة لكن الذي يصنع التاريخ إنما هم الرجال الذين يفون هذه الفكرة حقها ويقومون لها كما ينبغي من الوفاء والصدق والالتزام.

* * *

الإسلام ليس نظرية ذهنية بل هو دين، والعمل للإسلام ليس وظيفة وراتباً إنما هو التزام وتضحية، والبحث في الإسلام ليس قلماً وورقة بل هو علم وهداية، فطريق الإسلام خوض في التكاليف وحمل للأمانة وصدق في الانتساب ، وهذا يظهر جلياً في زماننا هذا كثيراً، إذ أن الكثير من البشر يسوقهم السوط، وتقرعهم العصا، ويؤدبهم السيف، فهؤلاء وإن صح إسلامهم ولكن لا تصحّ إمامتهم في زمن غياب سيف الإسلام ودولته، فهم وإن دخلوا في طوائف وجماعات العلم والجهاد اسماً إلا أنهم من أبعد الناس صورة وعملاً من الدخول في هذه الطوائف والجماعات، ومشقتهم على أصحاب الدعوة تصل إلى درجة الألم القاتل فحسبنا الله ونعم الوكيل.

* * *

لما علم من فتح الله بصيرته أن الجهاد في بلاد المسلمين قد تعيّن.. وأن بيان الحق الذي جاء به الرسل قد تعيّن بيانه والدعوة إليه كان لزماً على من آمن بهذا أن يكون عظيماً، عظيماً في دينه وإيمانه، عظيماً في أخلاقه وسلوكه، عظيماً في طاعته لله وتذللاً بين يديه، عظيماً في اهتدائه بسنة الرسول ﷺ، عظيماً في ترفعه عن الشهوات والأهواء، واهباً نفسه لله الذي خلقها، يبذل دوماً من ماله وجهده ما وهبه الله تعالى من خير وعطاء، ويلبي صيحات الثكالى واستنجاد المسجونين، لا يحبس عنهم ما هو حقّ لهم، هؤلاء الرجال هم الذين يميتهم الله على الطريقة التي عاشوا من أجلها، ويقضون هذه الدنيا على وفق ما أحب الله تعالى منهم، فإن عاشوا عاشوا مجاهدين سعداء، وإن ماتوا ماتوا أعزة شهداء، وبموتهم يفوزوا بما وعدهم الله تعالى، فإن للشهيد عند الله سبع خصال:

يغفر له مع أول قطرة من دمه..

ويرى مقعده في الجنة..

ويحلى حلّة الإيمان..

ويجار عذاب القبر..

ويزوج من اثنتين وسبعين من الحور العين..

ويشفع في سبعين من أهله..

ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها..

* * *

في أيامنا هذه عزّ وجود العظماء الذين يصنعهم التوحيد.. وحيث اشتدت وطأة الجهل وأحكمت قوى الردّة قبضتها على بلاد المسلمين.. صار واجباً على الأمة ـــوقد انتشر العقم فيهاـــ أن تحافظ على كلّ عظيم يولد فيها حفاظاً على أسباب العيش في صحراء قاحلة أو أيام مجاعة قاتلة.. أن تحافظ عليهم ليحفظ لها ما تبقى من عزّة يعيدونها لها شيئاً فشيئاً بعرقهم ودمائهم ومداد أقلامهم.. عزّة يسطرونها كلّ يوم بنماذج من البطولات والإقدام للتمكين لهذا الدين.. «ولا تزال عصابة من أمتّي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم، ولا يضرّهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»..

إنّ على الأمة اليوم ـــوإن كان أغلب أفرادها وجماعاتها لم يشعروا بقيمة وعظمة هذا الدور الذي يقوم به هؤلاء العظماء رغم قلّتهمـــ إن عليها اليوم أن تتحمل دورها الخطير في محاولة فهم هؤلاء العظماء؟

ماذا يريد هؤلاء؟ ولماذا هم لا يشبهون الناس في همومهم وتطلعاتهم؟

الكل يجري وراء سراب المتعة وحطام الدنيا.. وهؤلاء يقدمون أنفسهم على أكفّهم.. لا يهابون موتاً ولا يرهبون عدواً ولا يخشون سجناً ولا تعذيباً ولا تشريداً؟

من هم هؤلاء ولماذا هم كذلك؟..

إذا عرفت الأمّة ذلك وفهمت مدى عظم دور هؤلاء في صنع التاريخ عرفت دورها المنوط باتجاهاتهم، ذلك الدور المتشابك والمتداخل من واجبات هذا الدين العظيم الذي جعلها بحق (خير أمّة أخرجت للنّاس)..

إن على المخالفين والخصوم أن يكونوا منصفين في تعاملهم مع هذه القلة العظيمة.. التي تبذل لينالوا، وتضحي ليسعدوا، وتسجن ليتحرروا، وتشرد ليستقروا.. إن على المخالفين والخصوم أن يقيموا بعين الناقد المنصف إنجازات هؤلاء الأفذاذ.. وأن يعترفوا أنهم تقدموا لما جبن الكل، وأنفقوا حين بخل الناس، وجاهدوا في زمن كثر فيه القاعدون والمثبطون..

ولكن يا ترى هل سينصف هؤلاء؟!.. وسواء أُنصفوا أم لم يُنصفوا ف «لا يضرّهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»..

* * *

الحفاظ على أهل الحق لبناء الحق هو مسؤولية أهله أولاً.. وعلى من سلك هذا الطريق أن يعي دوره الخطير في حمل أمانة أشفق من حملها كل الوجود.. إننا اليوم في حاجة ماسة إلى تحرير المسلم من كل القيود والسمو به إلى درجة الإسار لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي»..

فكيف نواجه هذه المسؤولية؟

هذا هو السؤال المطروح على كل من اختار هذا الطريق وسار فيه..

وبأي الوسائل ننجح إلى حدّ ما في تحقيق نتائج هذه المسؤولية في الدنيا (التمكين) وفي الآخرة (الرضا الإلهي والفوز بالجنة)؟..

وردت رواية للحديث المتقدم عند مسلم «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة»..

فأنت كما ترى أن القيام بأعباء المسؤولية قد حدده النص النبويّ بالتفقه في الدين أي العلم بالدين والفهم له.. وهذه أعظم المسؤوليات الملقاة على من تسربل بسربال هذه الطائفة.. ولن تكون الخيرية على باقي المسلمين بغير هذا الشرط.. فالعلم هو النور الذي يطمس الجهل والابتداع.. والعلم وحده هو الذي يرفع الله به الدرجات في الدنيا وفي الآخرة (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)..

والظهور على المناوئين لا يتمّ إلا عن طريق التفقه في الدين.. فمن ناوأنا بسيف الجهل والعداء قابلناه بسيف البصيرة فبل سيف القطع والقتل.. ومن ناوأنا وفاخرنا بالعقل والسياسة والكياسة.. ناوأناه وفاخرناه بالفهم عن الله وعن رسوله ﷺ.. وهل بعد ذلك من خير أو فضل..

والحمد لله رب العالمين